ميخائيل نعيمة

١٨٨٩ – ١٩٨٨

غلبت على ميخائيل نعيمة، منذ وقت مبكر، صفة الفيلسوف، رغم أنه بدأ حياته شاعراً وكاتب قصة وروائياً وناقداً أدبياً. وقد حرص في كتاب سيرته، الذي وقف فيه عند السبعين عاماً من حياته، على أن يبرز ملامح الفيلسوف في شخصيته حتى وهو طالب في المرحلة الثانوية، ثم في المرحلة الجامعية. لكن أدبه، في القصة والرواية والنقد الأدبي، هو الذي عرَّف جيلي عليه في الأربعينات. إذ كان شريكاً لجبران خليل جبران وإيليا أبو ماضي، ولعدد آخر من رموز الثقافة العربية، في ممارسة التأثير علينا وعلى تكوّن شخصيتنا. كنا نقرأ كتاباته ونستمتع بها. وكانت قصائده ذات النفحة الرومانسية والوجودية تدخل براحة وانسياب إلى أعماق وجداننا. غير أن روح التمرد والثورة في أدب جبران كانت أعمق تأثيراً في جيلنا وفي الجيل الذي سبقنا والجيل الذي جاء بعدنا. إذ هو بعث في روحنا نفحة التمرد والثورة التي طغت على مجمل كتاباته. وشاركه في إنعاش روح القلق فينا الشاعر إيليا أبو ماضي، لا سيما في ملحمته الحافلة بالأسئلة الوجودية حول الكون والحياة، التي كان يطرحها ولا يجد أجوبة عنها. وكان ينهي كل سؤال عنها بالعبارة الوحيدة: لست أدري.

لكن ميخائيل نعيمة كان أكثر اطمئناناً من صديقيه. إذ هو تجاوز، أو حاول أن يتجاوز، الكثير من الأسئلة المؤرقة، باللجوء إلى الفلسفة الروحانية، التي استمد عناصرها من فلسفات وديانات الشرق القديمة، ومن المسيحية التي أخضعها لفهمه الخاص، تاركاً جانباً الكثير مما صار في المسيحية طقوساً. فتمايز عنها إلى حدود الاختلاف مع مؤسساتها، على غرار ما فعل جبران، لكن بطريقته هو، الخاصة به، طريقة فيلسوف الشخروب، الإسم الذي اشتهر به على امتداد حياته.

وُلد ميخائيل نعيمة في عام ١٨٨٩ في بلدة بسكنتا اللبنانية، الواقعة على ارتفاع ألف وأربعماية متر في أعالي سفح جبل صنين. بدأ تحصيله العلمي في مدرسة البلدة. انتقل بعدها إلى مدرسة الأرثوذكس التي أسستها الجمعية الأبراقورية الروسية للفلسطينيين في البلدة، التي ينتمي سكانها بأكثريتهم

إلى الطائفة الأرثوذكسية. أنهى دراسته في تلك المدرسة بتفوق. فقدمت له الجمعية الروسية التي أسست المدرسة لقاء تفوقه منحة لمواصلة دراسته في دار المعلمين الروسية في مدينة الناصرة في فلسطين. ثم حاز على منحة ثانية لقاء تفوقه لمواصلة دراسته في "السمنار" الروحي في مدينة بولتافا في جنوبي روسيا. مارس كتابة الشعر في فترة وجوده في روسيا، باللغة الروسية. وكانت قصيدة "النهر المتجمد" المشهورة من أولى قصائده في تلك المرحلة من حياته.

أنهى في عام ١٩١١ دراسته في بولتافا الروسية. وعاد إلى لبنان لينتقل منه إلى الولايات المتحدة الأميركية، ملتحقاً بشقيقيه اللذين كانا قد سبقاه إلى الهجرة. وأقام في مدينة "والاولا" التابعة لولاية واشنطن. انتسب في عام ١٩١٢ إلى جامعة سياتل في مادتي الأدب والحقوق. افتتح حياته الأدبية في عام ١٩١٣ بمقال في النقد الأدبي بعنوان "فجر الأمل بعد ليل اليأس" نشره في العدد الرابع من مجلة "الفنون" التي كان يصدرها في نيويورك الشاعر نسيب عريضة أحد زملاء ميخائيل نعيمة في الدراسة في المدرسة الروسية في الناصرة.

تخرَّج في عام ١٩١٦ من جامعة واشنطن بإجازتين، الأولى في الأدب والثانية في الحقوق. وكتب في ذلك العام مسرحيته "الآباء والبنون" ونشرها في مجلة "الفنون". ثم صدرت في كتاب. انتقل بعد ذلك إلى نيويورك بطلب من صديقه نسيب عريضة حيث تعرف إلى عدد من الأدباء الذين صاروا من أصدقائه. وأهمهم اثنان: جبران خليل جبران وإيليا أبو ماضي. ونشر في عام ١٩١٧ القسم الأكبر من روايته "مذكرات الأرقش"، التي وضع فيها بدايات عناصر فلسفته الروحانية. في عام ١٩١٨ تسلم مهمة تحرير مجلة "الفنون". إلاَّ أنه استدعي إلى الخدمة العسكرية، وأرسل إلى منطقة "الفوبورغ" على الجبهة الفرنسية الألمانية في المرحلة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى. اختير في عام ١٩١٩، بعد الهدنة، وقبل العودة إلى الولايات المتحدة الأميركية، لمتابعة الدراسة في جامعة "رين" الفرنسية، حيث اختار مادتي

الأدب الفرنسي والتاريخ الفرنسي. وعاد قبل أواخر ذلك العام إلى نيويورك ليستأنف نشاطه الأدبي. وشارك في عام ١٩٢٠ في تأسيس "الرابطة القلمية" مع زملائه في هيئة تحرير مجلة "الفنون". وكان الهدف من تأسيس الرابطة، كما جاء في افتتاحية في مجلة "الفنون" بتوقيعه، الانتقال بالأدب العربي من طور التخلف والجمود إلى طور الجدة والأصالة والمعاصرة. وصدرت في عام ١٩٢١ باسم الرابطة مجموعة من أبرز أعمال أعضاء الرابطة خلال ذلك العام. كما أصدر هو في عام ١٩٢٣ كتابه المشهور في النقد الأدبي "الغربال". ونشرت له جريدة التايمز النيويوركية بالإنكليزية في عام ١٩٢٨ مجموعة قصائده بعنوان "الجوع". وفي عام ١٩٣٢، أي بعد عام من وفاة صديقه جبران خليل جبران، غادر أميركا وعاد إلى مسقط رأسه في لبنان بلدة "بسكنتا" الجبلية. وأصدر في عام ١٩٣٤ كتابه المشهور الذي كرسه لجبران تحت عنوان "جبران خليل جبران"، الذي أثار ضجة كبيرة بين مؤيد له وبين منتقد. وكان صديقه أمين الريحاني أكثر المنتقدين له، متهماً إياه بالتجني على جبران. ودار بينهما سجال طويل على صفحات الصحف. وفي عام ١٩٣٦ أصدر كتابه "زاد المعاد" الذي يتضمن بعض محاضرات كان قد ألقاها في مناسبات عدة بعد عودته من أميركا. وفي عام ١٩٣٧ صدرت له مجموعة قصص بعنوان "كان يا ما كان". وفي عام ١٩٤٥ صدر له في بيروت ديوان "همس الجفون" الذي تضمن قصائده بالعربية، وقصائده المترجمة عن الإنجليزية والروسية. كما صدر له كتاب "البيادر"، الذي ضم بعض مقالاته في النقد الأدبي. وفي عام ١٩٤٦ صدر كتابه "الأوثان" الذي يبحث في بعض مقومات المدنية الحديثة كالمال والسلطان والعلم، التي اعتبرها أصنام الحضارة الحديثة. وصدرت له في عام ١٩٤٨ روايته الفلسفية الصوفية "لقاء". كما صدر له في العام ذاته كتابان. الأول هو "صوت العالم" تناول فيه محنة الإنسان في العالم المعاصر. أما الثاني فهو كتاب "مرداد" الذي يلخص فيه أدبياً عناصر فلسفته. وأصدر في عام ١٩٥٠ كتاب "النور والديجور" الذي يضم مقالاته التأملية. وأصدر في عام ١٩٥٣ كتاب "في مهب الريح". وهو مجموعة مقالات. وفي عام ١٩٥٤ أصدر كتاب "دروب"

ويضم مجموعة مقالات تعبِّر عن فلسفته. وأصدر في عام ١٩٥٦ مجموعة قصصية بعنوان "أكابر". وأصدر في عام ١٩٥٧ كتابه المشهور "أبعد من موسكو وواشنطن". وأصدر في عام ١٩٥٨ مجموعة قصصية أخرى بعنوان " أبو بطة". وفي عام ١٩٥٩ بدأ بإصدار كتاب سيرته "سبعون" في ثلاثة أجزاء. وفي عام ١٩٦١ أصدر رواية "اليوم الأخير"، التي تجري أحداثها في الساعات الأربع والعشرين التي توهم بطل الرواية أنها الساعات التي تسبق موته. وفي عام ١٩٦٥ أصدر كتاب "هوامش" الذي يتضمن تأملاته في أحداث ومشاهد وقضايا هامشية. وأصدر في عام ١٩٦٧ مسرحية "أيوب". وهي مسرحية رمزية صوفية، مستوحاة من سفر أيوب في الكتاب المقدس. وأصدر في عام ١٩٦٩ كتاب "يا ابن آدم". وهو يتضمن حواراً بين رجلين، يهدف من ورائه التمييز بين الحياة كما هي في الظاهر والحياة كما هي في الحقيقة، من وجهة نظره الفلسفية. وفي عام ١٩٧٣ أصدر كتاب "نجوى الغروب"، وهو مناجاة في شكل صلاة. وأصدر في عام ١٩٧٤ كتاب "من وحي المسيح" يقدم فيه قراءته للمسيح وفهمه لرسالة المسيح.

في عام ١٩٧٨ جرى احتفال تكريمي كبير له، بمبادرة من رئيس الجمهورية آنذاك الياس سركيس. وكان قد شارف على التسعين من عمره. وكان ذلك في فترة هدنة، أو ما يشبه الهدنة، في الحرب الأهلية. وكان هو قد غادر بيروت إلى مسقط رأسه في بسكنتا، حيث قضى بقية سنواته الأخيرة في عزلة كاملة، حتى آخر العمر.

تلك هي السيرة الملخصة لحياة هذا الأديب والفيلسوف اللبناني الكبير، ميخائيل نعيمة. وقد أتيح لي أن أتعرف إليه في عام ١٩٦٢، خلال مشاركته في المؤتمر العالمي لنزع السلاح الذي عقد في موسكو. وكنت في ذلك الحين عضواً في الهيئة التي دعت إلى المؤتمر ونظمته (مجلس السلم العالمي). وتكونت لي معه صداقة استمرت حتى عام ١٩٧٦، العام الذي غادر فيه بيروت إلى بلدته بسكنتا. وأهداني، في آخر لقاء بيننا، كتاب "اليوم الأخير". وكأنه كان يوم وداع بيننا. وقد استطعت، خلال تلك

الأعوام التي تكررت فيها لقاءاتي به، أن أكوّن عنه معرفة أعمق مما كنت قد كونته من قراءاتي له، منذ الشباب الأول وعلى امتداد العقود التي أعقبت تلك المرحلة من حياتي.

إلاَّ أنني عدت فقرأته من خلال بعض مؤلفاته بعد وفاته. قرأته في كتاب سيرته "سبعون". وقرأته في بعض كتبه التي تحدد العناصر الأساسية من شخصيته ومن فكره الفلسفي. وفي الواقع فإنَّ كل أدبه، القصصي والروائي والمسرحي والشعري والنقدي، مكرس بوعي منه لخدمة فلسفته الروحانية، التي كانت تتكون من خلال التأملات والحوارات والأسئلة والمشاهدة الحية لأحداث الحياة والكون، من دون أن يستثني من تلك المشاهدة الأحداث السياسية كبيرها وصغيرها، في بلده لبنان وفي البلدان العربية الأخرى وفي العالم الأوسع. وأعترف بأن أمتع ما قرأته لميخائيل نعيمة هو سيرته "سبعون" بأجزائها ومراحلها الثلاثة. فالكتاب لا يحكي قصة إنسان حقيقي وحسب. بل هو يتابع بكثير من التفاصيل تطور شخصية هذا الإنسان، بالمشاعر والأفكار والاستخلاصات الإنسانية، وبالفلسفة الطبيعية التي ترافق تطور كل إنسان، حتى وإن لم يملك كل واحد تحديدها وضبطها وإعطاءها صيغتها الكاملة. هنا، بالذات، يكمن الفرق بين الناس العاديين وبين الذين يصبحون في بلدانهم وربما في العالم أصحاب أفكار ورسالات مشهود لها ومعترف بها.

في الجزء الأول من كتاب سيرته يروي ميخائيل نعيمة تفاصيل المرحلة الأولى من حياته، أي منذ أن وُلد في بسكنتا الجبلية في سفح جبل صنين، إلى أن أصبح تلميذاً في مدارس متعددة، وصولاً إلى المرحلة التي أصبح فيها شاباً يافعاً يتابع دراسته ومغامراته في مدينة بولتافا الروسية. ويعترف نعيمة أنه في تلك المرحلة من عمره بدأت تتكون شخصيته الأدبية. وبدأت أفكاره تأخذ طريقها إلى التبلور. وبدأت فلسفته في الحياة تتكون. وهي تطورات كان يسجلها في يومياته بصدق. وبوسع القارئ أن يرى بوضوح الأثر الذي مارسته في إعادة صياغتها الأعوام السبعون والتجارب التي كدسها خلال تلك الأعوام. وكان

قد بدأ يقرأ الأدب الروسي في أعمال كبار الكتاب والمفكرين من لرمنتوف وتولستوي إلى غوغول وتشيخوف ودستويفسكي. وكان لرمنتوف الشاعر والروائي من أوائل الذين أثروا فيه. ولعلَّ قصيدته المشهورة " النهر المتجمد" التي كتبها باللغة الروسية هي من تأثير لرمنتوف فيه. لكنه لم يخفِ دهشته من عبقرية الروائي والفيلسوف الكبير تولستوي. وكان قد قرأ روايته الملحمية "الحرب والسلم". وكانت قد بدأت تترك أفكار أولئك الأدباء والمفكرين الإصلاحيين الروس تأثيرها عليه في سلوكه وفي مواقفه وفي أفكاره الأولى المفعمة بالتمرد. ويروي في يومياته أنه حين قرر بعناد ألاَّ يذهب إلى الصلاة مع الطلاب في مدرسة "السمنار" لم تخفه العقوبات التي هددته باتخاذها إزاءه إدارة المدرسة. ويسخر من اعتبار الذهاب إلى الصلاة في الكنيسة معياراً لحسن السلوك. ويقول في يومياته بهذا الصدد: لأدع جانباً مبادئي التي قلَّما أتساهل فيها. فالتمسك بها في السمنار يعني التضحية بالثقافة وبالمستقبل. لست وحدي في ما أذهب إليه من أن المسيحية الحقة لا تقوم بالوقوف في الكنيسة ساعتين أو ثلاث ساعات في الآحاد والسبوت والأعياد، بل باتباع تعاليم الإنجيل وإرشاداته. أي خير في عبادة تصرف القلب عن المعبود، وفي مسيحية تنسيك المسيح؟ فأنت إذ تقف في الكنيسة لا تستطيع إلاَّ أن تقارن بينها وبين المسرح. ففي الكنيسة . كما على المسرح . ممثلون هم الكاهن والشماس وغيرهما. وهؤلاء قد حفظوا أدوارهم وأتقنوها. وهم يظهرون أحياناً للنظارة وأحياناً يختفون. وفي الكنيسة . كما على المسرح . تتغير الزينة والملابس. أما الفرق بين الاثنين فقد لا يكون إلاَّ في أن الممثلين على المسرح يتوجهون بكلامهم وحركاتهم إلى الجمهور. في حين يتوجه رجال الدين إلى الكائن الأعلى، ولكن بشفاههم لا بقلوبهم، ومن غير أن تتصل به أفكارهم. وهكذا تضيع الرغبة في الصلاة حتى عند الذين يرغبون فيها".

وتزدحم في رأس نعيمة الطالب الشاب في تلك المرحلة الأسئلة الكبرى. وتكثر شكوكه. وتزداد رغبته في التمرد على السائد من الأفكار، لا سيما ما يتصل منها بالمسيح وبطبيعته، هو الإنسان والإله وابن الإله معاً في العقيدة المسيحية. ويتساءل هنا بقلق كبير: "وكيف يكون المسيح ابن الله " الوحيد" ولا

أكون أنا كذلك ابن الله. وقد دعاني المسيح أخاه، وعلَّمني أن أدعو أباه أبي؟ وكيف يكون أبي وأبو المسيح ذات الإله الذي تحدثني عنه كتب موسى وغيرها من أسفار العهد القديم؟ إنَّ "يهوه" موسى هو "رب اليهود" . إله حرب وبطش ومكر وتشف . إله غضب وثورة ونقمة . إله شعب واحد من كل شعوب الأرض . شعب جشع، أناني، مخاتل، يستبيح كل محرَّم في سبيل ما يحسبه خيراً له، وإن كان فيه الويل كل الويل لغيره. في حين أن إله الإنجيل أب كله شفقة ورأفة ورحمة ومحبة. فهو يشرق شمسه على الأشرار والأبرار بالسواء. ويفرح بنعجة واحدة تضل عن القطيع ثم تعود إليه فرحه بالقطيع كله. وهو، إلى ذلك، أب لجميع الناس بدون استثناء. وليس له شعب "مختار" يغدق عليه كل عنايته دون باقي الشعوب. فكيف أوفِّق بين الإلهين كما تريدني الكنيسة أن أفعل؟ فقد بات ذلك فوق ما أستطيع هضمه!"

وهو يخاطب في إحدى يومياته تولستوي بالكلمات التالية:" أنا مدين لك بأفكار كثيرة أنارت ما كان مظلماً في عالمي الروحي. ففي الكثير من منشوراتك الأخيرة التي طالعتها في العام الماضي وجدت نوراً أهتدي به في كل خطوة من خطواتي. أجل، فأنت، من هذا القبيل، قد أصبحت معلمي ومرشدي من حيث لا أدري... ".

لكن ميخائيل نعيمة يكتشف الحب في روسيا. يكتشفه على غير موعد، وقبل أن تكتمل عناصره وتنضج شروطه. وهو يصف في يومياته في تلك المرحلة كم كان بالنسبة إلى الفتيات هدفاً دائماً. تهيم به أكثر من فتاة في وقت واحد، في حين أن قلبه لم يكن قد وجد ضالته بعد. كانت فاليا صديقة أصدقائه قد بدأت تنجذب إليه وتتولع بحبه. في حين كان يعتبر ذلك الحب بالنسبة إليه "ورطة". ويناجي نفسه بتلك الكلمات المؤثرة:" ماذا أعمل بقلب لا يرى له حياة إلاَّ في قلبي؟ بل ماذا أصنع بقلبي ترتمي عليه القلوب وهو لم يجد بعد قلباً يرتمي عليه؟ إنه يريد أن يحب، أن يذوب في الحب. لكنه لم يأتِ أوانه بعد. لم يجد ضالته. وسيجدها يوماً ما".

لكن فاليا صارت صديقته. ومعها، وفي ظل متعة اللقاء بها وحدها من دون رقيب أو حسيب، نظم قصيدته "النهر المتجمد" التي كان يتغزل من خلالها بروسيا، ويتساءل مع فقرائها، عن ربيعها وعن موعد مجيئه ليفلتها من عقال الجليد، وعما إذا كان سيأتي زمان يتذوق فيه العامل والفلاح شيئاً من الفرح والسعادة. ويقول فيما بعد، تعليقاً على ما جاء في قصيدته تلك من أفكار، بأنه لم يكن يدور في فكره أن سؤاله سيأتي الجواب عليه بعد سبع سنوات، وأن الحكم في روسيا سينتقل، بفعل ثورة أكتوبر الاشتراكية، من أيدي القيصر والأشراف والإقطاعيين ورجال الدين إلى أيدي العمال والفلاحين.

لكن للحب عند ميخائيل نعيمة أشكالاً ومفاهيم تسحر قارءه. فسيرته ملأى بالقصص التي يروي فيها كيف كان يأتيه الحب من غير جهة، ومن غير موعد. ويصبح أسير ارتباكاته والتباساته ومخاطره، التي انتهت جميعها إلى الخيبة. وهي مغامرات كان له فيها شركاء من رجال لم يكونوا في مستوى الأزواج الطبيعيين. ولم يكن بالإمكان التحرر منهم. فكان الحب. وكانت المآسي. وكان الفشل. ولا يخفي نعيمة شعوره بالنشوة والانتصار حين يروي كيف أن النساء كنَّ يأتين إليه، بدلاً من أن يذهب هو في اكتشافهن. حتى صديقة صديقه الحميم جبران خليل جبران جاءته بعد وفاة جبران وارتمت في أحضانه، فأبعدها عنه بكبرياء ووفاء، كما يقول. لكن نعيمة انتهى من مغامراته الغرامية بالانكفاء عن الزواج. واستخلص من تجربته فلسفة صارت جزءاً مكوناً من فلسفته الصوفية الروحانية. وكان كتابه المعروف "مذكرات الأرقش" تجسيداً لها. وصارت شخصية الأرقش بالنسبة إليه نموذج حياة تحولت إلى إنسان حقيقي، رغم أنها شخصية من نسيج خياله. فالأرقش هذا، الذي أوصله حبه لحبيبته إلى مرحلة الجنون انتهى به إلى قتلها، لأن حبه لها تجاوز علاقته بجسدها، فكان لا بد من أن يغيِّب هذا الجسد من حياته، ليبقى له منها حبه. وأعترف هنا أنني لم أستطع أن أفهم من هذه المأساة معنى ما يرمي إليه نعيمة، برغم كل ما جاء في الكتاب ذاته من تفاصيل وبرغم كل ما جاء في الجزء الثاني من كتاب سيرته من إشارات إلى ذلك الكتاب وإلى بطله الأرقش.

ثم يصبح نعيمة، بعد انتقاله إلى الولايات المتحدة الأميركية، وبعد حيازته إجازة في الأدب وفي الحقوق، يصبح أديباً. ويشارك كما أشرت إلى ذلك في تحرير مجلة "الفنون" في نيويورك مع نسيب عريضة وجبران خليل جبران ورشيد أيوب وإيليا أبو ماضي. ويبدأ في كتابة الشعر وفي كتابة القصة والرواية. ويبدأ في كتابة المقالات النقدية التى توجها في كتابه "الغربال"، الذي يعد من أوائل كتب النقد في الأدب العربي، والذي تتلمذ عليه العديدون من النقاد على امتداد عقود. ثم يشارك مع زملائه الآنف ذكرهم في تأسيس "الرابطة القلمية" التي مارست دوراً كبيراً في إغناء الأدب العربي، وشارك أدباؤها وشعراؤها أدباء وشعراء البلدان العربية الآخرين في تأسيس نهضة أدبية مشرقة. ودارت خلال تلك الفترة الذهبية سجالات ومطارحات، هي من أمتع ما يمكن أن تشكله الذاكرة الأدبية العربية في تاريخنا العربي الحديث.

ولعل من أبرز وأهم ما اتسمت به ثورة ميخائيل نعيمة في ميدان النقد الأدبي ثورته على الجامدين الذين أرادوا تحنيط اللغة وإبقاءها أسيرة القواميس والمعاجم التي تمنعها من الانخراط في التحديث. وهو يقول في هذا الصدد في الجزء الثاني من كتاب سيرته، حين يتحدث عن أولئك المحنطين، بأنه اضطر إلى كتابة مقال بعنوان " نقيق الضفادع" يرد فيه عليهم. ويستشهد بمقطع من ذلك المقال:" لكنَّ حرصنا على اللغة يجب أن لا ينسينا القصد من اللغة. فجميل بنا أن نصرف همّنا إلى تهذيبها وتنسيقها لنكسبها دقّة ورقَّة. إنما قبيح بنا أن ننسى أو نتناسى كونها رمزاً إلى ما هو أكبر وأجلّ منها بمراحل. وأقبح من ذلك أن نحسبها وافية، كاملة، وليس لمستزيد في دقّتها زيادة... إنَّ قولنا بكمال اللغة العربية كما هي اليوم يعني إقرارنا بأن الأعراب الذين تحدَّرت عنهم هذه اللغة الشريفة، والنّحاة الذين قيَّدوها بقواعد منذ ألفي سنة، كانوا أنبياء البيان، بل آلهة البيان. وأننا لخسَّة جِبِلَّتنا، وفقر قلوبنا وأفكارنا، يستحيل علينا أن نضيف إلى ما رتَّبوه، أو أن نُسقط أو نغيِّر منه حرفاً. فما لنا والحالة هذه إلاَّ أن نحطِّم أقلامنا ومحابرنا ونكفّ عن الكتابة راضين بما عندنا من لغة، وبما للغتنا من قواعد... ".

ثم يستعيد ما جاء في كتابه "الغربال"، متبنياً أفكاره فيه. ويقول:" في الكتاب نظريات وآراء وتوجيهات لو سُئلت فيها اليوم لتبنيتها دونما تردد. فأنا لا أزال أقول إن "محور الأدب" هو الإنسان. فعلى قدر ما يتغلغل الأدب في حياة الإنسان، وفي التفتيش عن أهدافها وعن العقبات التي تقوم في وجه تلك الأهداف، يكفل لنفسه البقاء. وذلك يعني أن الأدب . شعره ونثره . يجب أن يُقيَّم بقدر ما فيه من قوى إنسانية ظاهرة أو باطنة لا بقدر ما فيه من الحذلقة والبراعة في صقل الكلمات والعبارات. ولا أزال أقول إن النقد خلق وإبداع وليس مجرد استحسان أو استهجان. وإن اللغة أداة خلقها الإنسان للتعبير عمّا تثيره في نفسه متطلبات حياته اليومية، المحسوس منها وغير المحسوس، والتافه والجليل على حدٍّ سواء. فلا يليق أن يصبح المخلوق سيد الخالق، فيغدو الإنسان أداة في يد اللغة بدلاً من أن تبقى أداة في يده يكيّفها حسبما تمليه عليه حاجاته المتطورة بغير انقطاع. ولأن "العامية" هي اللغة المتطورة أبداً، ولأن "الفصحى" لا يسمح لها المتعنتون بالتطور، فقد باتت الأخيرة في خطر التحجر، أو في خطر التقهقر بعيداً عن حياة الذين يتخذونها أداة للتعبير عن حياتهم، إلاَّ إذا هم لقَّحوها بمفردات جديدة وقوالب جديدة من مفردات العامية وقوالبها".

لكن ميخائيل نعيمة الناقد هو، كما اشرت إلى ذلك، شاعر. وهو يعتز بشعره، من أول قصيدة كتبها باللغة الروسية، حتى آخر أشعاره. وقد أصدر أكثر من ديوان. لكن ديوانه "همس الجفون" هو أهم ما تضمنه من شعره.

في بسكنتا استقرت إقامة ميخائيل نعيمة بعد عودته من أميركا. وبنى له في منطقة مرتفعة فوق بلدته في سفح جبل صنين هو الشخروب، مكاناً لتنسكه وتأملاته ولصلاته الروحية. وفي ذلك المكان المتواضع كان يستقبل زواره. وكانوا كثيرين. وكانوا يأتون إليه من لبنان ومن بلدان عربية وأجنبية. ومن ذلك المكان كان يذهب في زياراته إلى البلدان الأخرى تلبية لدعوات كانت تصل إليه من أصدقاء، ومن

منتديات أدبية، ومن جامعات لإلقاء محاضرات. وكانت روسيا، المكان الذي ولدت فيه تأملاته الأولى وأفكاره المتمردة، ومغامرات الحب التي انتهت جميعها إلى الخيبة، روسيا هذه كانت دائماً البلد الذي يحن إليه ويشعر بالشوق إلى زيارته. فكان يلبي من دون تردد أية دعوة كانت توجه إليه لزيارتها. وما أكثر زياراته إلى روسيا. وما أكثر تعلقه بأدبائها الكبار والمفكرين المصلحين. ويشير كتابه "أبعد من موسكو وواشنطن" إلى أنه لم يكن صديقاً لثورة أكتوبر الاشتراكية ولتجربتها في بناء الاشتراكية على أرض ذلك البلد الذي تعلم فيه وأحبه. لكنه لم يكن معادياً لها، رغم كثرة النقد الذي وجهه إلى الطريقة التي كانت تقاد فيها عملية البناء، بناء الإنسان بالدرجة الأولى. وكان شديد النقد لستالين وللستالينية. لكنه كان أكثر تعاطفاً مع لينين. وكان في الوقت عينه كبير الشك بقدرة تلك التجربة في ترجمة أفكارها العظيمة في الممارسة. وكان صادقاً في شكه. كان على حق في ذلك، كما أشارت إلى ذلك الممارسة الخاطئة، التي أدت إلى سقوط التجربة الاشتراكية بعد ثلاثة أرباع القرن على بدايتها.

وفي الوقت الذي كان نعيمة ينتقد التجربة الاشتراكية، ويشكك في قدرتها على النجاح، كان شديد النقد للرأسمالية، وللوحشية التي تمارس فيها الدول الرأسمالية سياساتها إزاء الدولة الضعيفة، وإزاء قضايا السلم والحرب.

وهو يقدم في مقدمة كتاب "أبعد من موسكو وواشنطن" تصوراته لحركة التاريخ، من خلال ولادة قيادات تعيش ثم تنقرض لتأتي بعدها قيادات أخرى. يقول في هذا الصدد:"هكذا تتوالد التيارات البشرية بغير انقطاع. فتبدو لنا كما لو كانت بنت ساعتها، ويبدو الكثير منها كما لو كان يصارع بعضه بعضاً حتى تكون الغلبة لواحد على الكل. وذلك ما ينفيه الواقع. فالواقع هو أن جميع تياراتنا تعود في الزمان إلى القلق الأول الذي شعر به الإنسان في فجر حياته من أمور يجهلها في نفسه وفي الأكوان من حوله. وإنها، وإن تعددت مظاهرها وتنوعت ألوانها، تشكل تياراً واحداً لأنها ترمي إلى غرض واحد. وذلك

الغرض هو المعرفة التي بها لا بغيرها يستطيع الإنسان أن يسيطر على نفسه وعلى الأكوان التي من حوله سيطرة لا تترك مجالاً لأي قلق. أما أن نجاري هذه التيارات أو نقاومها لأنها تساير أو تعاكس رغباتنا القومية، أو نظمنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية وسواها، فذلك هو الجهل بعينه. إذ أن الغاية التي تهدف إليها هذه التيارات ليست تدعيم قومية ضد قومية، أو نظام ضد نظام. بل هي صهر القوميات جميعها في إنسانية واحدة تتسامى فوق القوميات. ورد جميع النظم البشرية إلى نظام واحد هو نظام الإنسان المتشوق إلى المعرفة والمجهز بكل ما يحتاجه من قوى وسلاح للوصول إلى تلك المعرفة. جرَّدوا التاريخ مما فيه من سفاسف وترهات تجدوه سجلاً حافلاً بالقلق الذي يقذف بالناس في شتى التيارات تفتيشاً عن الراحة والاستقرار. ولأن الراحة والاستقرار لا يكونان إلاَّ بالمعرفة فتلاحُق التيارات البشرية وتشابكها إنما يعني أن الإنسان ما يزال بعيداً عن المعرفة، وبالتالي عن الراحة والاستقرار. فحري به، بدلاً من أن ينتابه الذعر عند ولادة أي تيار، أن يبصر فيه دليلاً جديداً على حيويته، وبشيراً بأنه ما حاد عن الطريق المؤدي إلى المعرفة التي ينشد، وهو طريق طويل وشائك من غير شك. أما يوم تنقطع تياراته وهو من الجهل حيث هو، فذلك نذير له بأن حيويته إلى نفاد، وأن الطريق الذي يسير فيه نهايته إلى العدم".

حاولت في هذه السطور أن اقدم نبذة عن حياة أديب لبناني عربي كبير ومفكر وفيلسوف. لكنني أعترف بأنني لم أستطع أن أدخل إلى كل مكونات شخصيته المتعددة، لا سيما ما يتصل منها بالجانب الفلسفي من أفكاره. فهذا الجانب هو الأكثر إثارة للأسئلة، والأكثر إثارة للحيرة، كما بدا لي. فلم أستطع أن ألخص جوهر فلسفته الروحانية. لذلك اكتفيت بإشارات عابرة إليها. وبهذا المعنى فإن قراءة فكر وأدب وفلسفة ميخائيل نعيمة تقتضي من الباحث أن يذهب عميقاً في كتبه.

ميخائيل نعيمة هو في ما قدمته عنه من خلال قراءتي له ومعرفتي به يمثل أحد معالم الشخصية اللبنانية بما تميزت به من تنوع وتعدد وغنى في الثقافة في أجناسها المختلفة. إنه أحد رموز نهضتنا اللبنانية العربية خلال القرن العشرين منذ مطالعه. وهو بهذا المعنى مصدر اعتزاز للبنانيين.